دلالات الزمن النفسي في رواية اللاز
للطاهر وطار

أ/ منيرة شرقي
جامعة تبسة

ملخص:

الزمن النفسي عنصر هام في الرواية، يرتبط كثيرا بعنصر الشخصية، فهي التي تعيشه حين تتأمل الحاضر، أو تتذكر الماضي، أو تستشرف المستقبل. يعتمد الزمن النفسي في الرواية على التذكر والسهو والهذيان والمونولوج، ويصور معاناة الإنسان في العالم، ويعكس أحيانا حالات الفرح والسعادة.

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح كيفية حضور الزمن النفسي في رواية (اللاز) للطاهر وطار، بدءا باللاز الذي يعيش أزمة البحث عن الهوية، ثم بعطوش الذي يطمح إلى التخلص من الحاضر المتعب نفسيا، ثم قدور الذي يعيش زمن الانشطار والخوف، وزيدان الذي يحب الانعزال بسبب الحرب.

الكلمات المفتاحية: الزمن النفسي، رواية اللاز.

Résumé:

Le temps psychologique est un élément important dans le roman, il a une relation avec le personnage qui médite le présent, ou rappelle le passé, ou regarde vers l'avenir. Le temps psychologique dans le roman dépend de la mémoire, l'omissions, la rave, et le monologue, il dépeint la souffrance humaine dans le monde, et parfois, il reflète les cas de joie et de bonheur.

Cette étude vise à clarifier comment la présence du temps psychologique dans le roman (Laz) de Tahar Wattar, commençant par "Laz" qui est à la recherche de son identité, puis "Batosh" qui souhaite abandonner la présente, puis Kadour qui vit perplexe et peur, et Zidane qui aime l'isolement en raison de la guerre.

Mots clés: le temps psychologique, le roman (Laz).

*** *** ***

مقدمة:

تتجلى قيمة الزمن النفسي في الرواية من خلال إسهامه الكبير في تشكيل المضامين، وبناء الأحداث، وتقريب الشخصيات من القارئ، مثلما جاء في رواية اللاز للطاهر وطار، إذ لعب فيها دورا هاما؛ الأمر الذي لفت انتباهنا وجعلنا نتساءل: كيف حضر الزمن النفسي في رواية اللاز؟ وما هي دلالاته؟

تسعى الدراسة للإجابة عن التساؤلات المطروحة وفق منحى منهجي يتتبع عنصر الزمن النفسي ويدرسه في علاقته بالشخصية، حيث تعامل الكاتب معه تعاملا مجديا، وقبل الدراسة والتحليل يجدر تقديم الرواية بملخص لها، ثم لمحة نظرية عن الزمن النفسي في الرواية.

1- ملخص الرواية

قال الطاهر وطار عن روايته: «أنا لم أكتب "اللاز" بل الشعب الجزائري هو الذي كتبها»[1]، وذلك راجع إلى مضامينها المستقاة من روح الشعب ومعاناته فترة الاحتلال الفرنسي.

رواية اللاز كبة من الخيوط المتشابكة التي يصعب فرزها، أو العثور على واحد منها هو خيط المسار السردي، لأنه اختلط مع خيوط الاسترجاعات الكثيرة. تجري أحداث الرواية في إحدى قرى الجزائر التي يسكنها العديد من الثوار، و"اللاز" واحد من أبطالها؛ لقيط وطائش وشرير وصاحب طباع سيئة، حلمه الوحيد هو أن يكون له أب كباقي البشر، وحين تحقق له ذلك، انعطف مسار حياته، وبدأ من جديد، فالتحق بصفوف الكفاح، واهتم بتهريب المجندين الجزائريين، إلا أن خائنا وشى به، مما استدعى إلقاء القبض عليه أمام الملأ من قبل الجيش الفرنسي، حينها استطاع أن يومئ إلى المناضل قدور بالفرار، فهرب هذا الأخير والتحق بالقائد زيدان ومن معه. لقي اللاز حتفه من التعذيب داخل الثكنة، وتمكن من الفرار بعد عناء طويل، وخلص معه الجنود الجزائريين، ثم التحقوا كلهم بزيدان (أب اللاز). تعرض زيدان لنزاع مع جبهة التحرير الوطني بسبب الاختلافات الإيديولوجية، ونتيجة رفضه التخلي عن

الحزب الشيوعي تلقى الذبح عقابا له، شاهد اللاز عملية ذبح أبيه فدخل في حياة اللاوعي.

ترسل الرواية فروعها على مر الصفحات، وكأنها أخطبوط يمد أطرافه راغبا في إمساك كل شيء، فهي تحاول لم شتات الأحداث من كل جهة والتي تمس شخصياتها، فتسرد ما حدث مع قدور منذ حياده من الثورة إلى غاية استشهاده، وبعطوش منذ أن كان راعيا للعجول حتى أصبح خائنا ثم فدائيا، وزيدان منذ علاقته بمريم "أم اللاز"، حتى ذهابه إلى باريس وعودته متشبعا بالفكر الشيوعي ومساهمته في الثورة إلى غاية ذبحه... وغير ذلك.

2- الزمن النفسي والرواية

يجدر في البدء التفريق بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي، أو -كما يستعمل البعض- بين الزمن الداخلي الذاتي والزمن الخارجي الموضوعي؛ فالأول نعيشه بمعزل عما هو خارجي، ويحتاج في تقديره إلى خبرتنا، أما الثاني فلا يحتاج لذلك، إذ أنه وقت حقيقي يُحسب بساعة الزمن[2]، ومنه يتضح أن الزمن النفسي يمثل المقابل للزمن الطبيعي، فإن كان الثاني موضوعيا قياسيا، فإن الأول ذاتي لا يمكن الاتفاق في قياسه، إذ هناك عوامل عقلية ونفسية تسهم في تحديده، فيختلف مقداره من شخصية لأخرى حسب العوامل.

يعرف الزمن النفسي بأنه الزمن الذي يدرك من خلال الاستمرار الزمني للحادثات كما تحس داخليا، إلا أن الاستمرار الزمني كما يقاس بالحادثات الخارجية يبدو أطول أو أقصر وفق الحالة العقلية للشخص، فمن الناس من يملك حسا زمنيا دقيقا في غياب الزمن الخارجي، ومنهم من لا يملكه، ومن العوامل التي تخل بحس الإنسان للزمن التغيرات في درجة حرارة الجسم، والعامل النفسي...[3]، وهذا ما ينطبق على الشخصية في الرواية، فعند استحضارها من طرف الكاتب، تدرك الزمن كما تحسه داخليا، وذلك يعطي الرواية بعدا واقعيا.

تعيش الشخصية في العمل الروائي الزمنَ النفسي بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل؛ حيث تتذكر الأول، وتتأمل الثاني، وتستشرف الثالث.

لا يوجد الزمن النفسي إلا في ذات الشخصية التي جردته من موضوعيته وجعلته حالة نفسية لا شعورية[4]، فهو نفسي وذاتي، لصنع النفس والذات إياه، وداخلي لوجوده داخل النفس البشرية فقط، دون أن يتعداها إلى خارجها، ويتضح مفهومه في الأدب أكثر بما أورده الطاهر وطار من قول للشيخ الربيعي: «ليس لنا من الماضي إلا المآسي.. وليس لنا من الحاضر إلا الانتظار.. وليس لنا من المستقبل إلا الموت..»[5]، فهذه الشخصية غارقة في التفكير، وتعيش زمنا خاصا بها وحدها، من خلال مخاطبة ذاتها وتذكّر الماضي وتأمل الحاضر واستشراف المستقبل، وما أثار الربيعي هنا هو ما رأته عيناه وسمعته أذناه من حديث لأشخاص يتباهون بشهدائهم، وينتظرون مِنحهم حتى تعطى لهم... فدون قصد منه صار غير واع بالزمن الطبيعي ومكتف بزمنه.

مادام الزمن النفسي مرتبطا بالشخصية، فإنه يُدرس بطرح تساؤلات تُعنى بها، وأهمها:

- كيف تعيش هذا الزمن؟ ← التذكر، المونولوج، الغفوة، الهذيان...

- كيف هي حالتها وهي تعيش هذا الزمن؟ ← حزينة، سعيدة، قلقة...

- ما هي علاقتها بهذا الزمن؟ ← ترغب في استمراره، تريد الخلاص منه، تريد تغييره...

- وللاستيضاح أكثر: لماذا تعيش هذا الزمن؟ أو ما هي مناسبة هذا الزمن؟

زيادة على ذلك، أمر مهم جدا: ما هي مدة وسرعة هذا الزمن؟ ← وتنبني حسب علاقة الشخصية به؛ طويل يسير ببطء، قصير يسير بسرعة، إذ «تدرس السرعة الزمن النفسي Temps Psychologique أي إحساس الإنسان بالزمن. فالساعة الواحدة التي يحددها الاصطلاح بستين دقيقة، والتي لها

قياس ثابت في الزمن الطبيعي، يختلف إحساس الناس بها تبعا للحال التي هم فيها. فالإنسان المنتظر القلق الخائف يحسب الساعة دهرا، والإنسان اللاهي المستغرق في السلوى أو المتعة يحسب الساعة دقيقة، فلا يشعر بمرور الوقت، لهذا يمكننا أن نقابل رواية الحدث، التي تستخدم الحذف والملخص والقليل من المشاهد، بالرواية النفسية التي تغلّب العرض والتحليل، ويسير فيها الزمن ببطء»[6]، مما يعني أن الزمن النفسي يخالف الزمن الطبيعي في السرعة، وذلك حسب تقدير الشخصية له، بما يتطابق مع حالتها النفسية.

للزمن النفسي علاقة تنافرية أخرى مع الزمن الطبيعي، كون الأول لا تعيشه الشخصية ولا تدركه إلا عندما تفقد شعورها بالثاني.

3- الزمن النفسي في رواية اللاز

يدرك الإنسان الزمن من خلال الساعات والتقاويم التي اخترعها، ولكنه يجد نفسه –وهو ينظم حياته وفق هذا الزمن الموضوعي- ضحية مفارقة يشعر بها، إذ يجد نفسه بين زمن طبيعي من معطيات القياس والحساب، وزمن نفسي من معطيات المشاعر والأحاسيس والحالات النفسية[7]، فالزمنان منفصلان لكنهما يتنازعان ويتجادلان في دائرة الإنسان.

يعتمد الزمن النفسي في الرواية -غالبا- على التذكر والسهو والهذيان والمونولوج.

3-1- زمن البحث عن الهوية والانتماء

«كان الربيعي مثل كل سكان القرية، يبغض اللاز، ويتمنى من صميم قلبه، أن تلحقه المصيبة القاضية.. يرتكب جريمة لن يخرج بعدها من السجن، أو يقضى عليه، سواء من طرف العسكر، أو من طرف الثورة..»[8]، لم يكن الربيعي الوحيد الذي يكره اللاز، فهذا الأخير منبوذ اجتماعيا لتصرفاته العدائية والسيئة، حيث كان يسطو وينهب ويضرب ويتعاطى الخمر... وهو سلوك فرضته حالته النفسية المتعبة، والتي حملت بلا ذنبٍ جرمَ كونه لقيطا.

انعكست معاناة اللاز من ماضيه على أفعاله وأقواله، وظل لفترة حبيس معاناته النفسية وتألمه الروحي، ومادام الأمر كذلك، فالزمن طويل بالنسبة إليه.

رفض اللاز استمرار وضعه البائس، فقرر تغييره، وقال في نفسه: «أريد أن أتخلص من اللاز ولد مريانة(*)»[9]، إنها معاناة الابن اللقيط التي تظهر صعوبة أو استحالة العيش في وسط يرفض التعامل مع أي لقيط، وعدم تقبله بينهم.

التقى اللاز بأبيه "زيدان" بعد مدة، وشعر بفرحة لا تضاهيها فرحة، ولم يستطع حينها التحكم في مشاعره التي فاضت لحظة الخبر، فارتمى مباشرة على أبيه «وراح يقبله في كامل وجهه. وفجأة تخلص من ذراعيه وراح يقهقه، بينما الدموع تنهمر من عينيه... اللاز عنده أب، ها ها... اللاز، أنا... مريانة أمي كانت تسمى مريم... ها ها...»[10]. بمجرد أن علم اللاز أن زيدان البطل الثوري هو أبوه، أخذ يهذي دون وعي منه، وفقد شعوره بالزمن الطبيعي واكتفى بزمنه هو فقط، لأنه فرح وراغب في هذه اللحظة التي أنسته نفسه.

يجيء الزمن النفسي غالبا فوق وعي وإرادة الشخصية، فيكون لاإراديا ولا مفتعلا، مثلما حدث مع اللاز في المقطع الآنف، فقد أخذته سعادته المفرطة إلى أن يهذي دون وعي وتدبر منه، كيف لا! وحلمه الذي طالما راوده وتمنى الوصول إليه قد تحقق، وعرف هويته وأصبح موجودا.

وجد اللاز نفسه بعد ضياع طويل، وشعر أنه ولد من جديد، فصار راغبا في الحاضر الذي لم يرغبه يوما، وشاء البدء من هذه اللحظة التي كانت نقطة التحول في حياته، والتي غيرته من حالته الدنيئة إلى حالة سامية ترقى لأن تكون جزائرية بأتم معنى الكلمة، وتسعى للنضال والجهاد بكل تفان وتضحية، والدليل على ذلك انفعاله الشديد لمّا علم بخيانة بعطوش، حيث غضب وسخط لدرجة أن «هوى عليه برأسه، فطرحه أرضا، والتفت إلى الضابط وزمجر في هستيريا دون أن يغير من وضع يديه: مجاهد، مجاهد. مسبل،

مناضل. فلاق، خدعتك أيها المأبون القذر»[11]، فقدَ اللاز تمالك نفسه، وكشف سرَّه بكل جرأة جراء الغيظ من هؤلاء الخونة.

خروج اللاز من محنة تجاوز الماضي، أدخله في محنة أخرى، هي البحث عن سبل الانتماء لهذا الوطن العزيز، وكيفية الانضمام إلى تركيبه الاجتماعي، لأنه كثيرا ما آلمه كره الناس واحتقارهم له، فحاول كسر هذه المعاناة النفسية عبر الاجتهاد لمحو التصرفات السيئة والانضمام لصفوف الثورة، لكن ذلك كلفه الوقوع في مصيدة الفرنسيين، وهنا تتضح الصلة المتينة بين الزمن النفسي والزمن الطبيعي؛ إذ كان الأول سببا في وجود الثاني.

اللاز غير محظوظ لأن الناس لم يقدروا تضحيته، فظل يعاني أسفا على نفسه التي لم تحظ بالتقدير اللازم، وعاش زمنا نفسيا أليما يوضحه المونولوج الآتي: «هو أيضا (عن الضابط الفرنسي) لا يراني جادا فيما أقوم به من عمل... كالآخرين، ككل الآخرين، عدا عمي زيدان. أبي زيدان، وعمي حمو... يعتقدون أنه لا دور جادا يمكن أن أؤديه في الحياة... يروني دودة زائدة، لا عمل لها إلا تنغيص حياتهم»[12]. اللاز حزين ومستاء ومشفِق جدا على نفسه، وما جعله كذلك، هو استخفاف الضابط بعمله الثوري، إذ رأى أسماء أخرى وراء الأعمال التي قام اللاز بها؛ وظل اللاز يبحث عن الانتماء للجزائر.

قد تخلق الشخصية في الرواية زمنا نفسيا داخليا بغية محو زمن طبيعي خارجي مؤرق، أي أن الزمن النفسي قد يكون مفتعلا وإراديا من أجل تحقيق هدف معين -وقد رأينا قبلا أنه يكون لا إراديا-؛ فاللاز وهو يكابد مخالب الوحش الفرنسي، انتقل إلى نوع آخر من الألم، عاش فيه حالة من التعذيب القاسي التي ابتغى مضيها واضمحلالها، فاقترح على نفسه الانشغال بالماضي والتفكير في أمور طوتها السنين، عسى ذلك أن ينجيه من الآلام، غير أن ذاكرته لم تسترجع إلا الحدث البارز فقط وهو أمر والديه، ثم أن الجلدات الضاربة لم تسمح له بالجولان في هذا الزمن الماضي.

يتضح مما سبق أن الزمن النفسي قد يكون مفتعلا وإراديا للقضاء على زمن طبيعي خارجي، إلا أنه يمكن للزمن النفسي أن يكون بصورة أخرى مفتعلا، ولكن للقضاء على زمن نفسي آخر؛ فاللاز عندما كان تحت وطأة الجلد أسرَّ لنفسه: «هذه العملية الأولى، إن لم أعترف أثناءها، تلتها مباشرة العملية الثانية... الغطس في الماء مع الكهرباء. وإن لم أعترف أثناءها، جاءت العملية الشاقة... اقتلاع الأظافر»[13]، وحاول تجاوز هذه الأفكار العالقة في ذهنه، لاسيما فكرة اقتلاع الأظافر، فأجهد نفسه لخلق زمن نفسي مغاير، دار في خلده: «عندما قتل القايد في دوارنا وهرب عمي زيدان... أبي زيدان مع أمي إلى الغابة، أين هربت جدتي؟ وعمي حمو مع من هرب يا ترى؟»[14]، فدوما الحدث البارز نفسه، ولسوء حظه المعتاد لم تسمح له السياط الموجهة إليه بالانغماس والتوغل في هذا الزمن المفتعل. بقي اللاز يتألم ويحاول مرارا تجاوز محنة التعذيب القاسية، ولم يكن أمامه سوى خلق أزمنة ذاتية نفسية، لأن الصراخ حرض العدو عليه؛ هذا ما حقق في الرواية فكرة صراع الأزمنة النفسية مع الأزمنة الطبيعية تارة، وصراع الأزمنة النفسية فيما بينها تارة أخرى.

مأساة اللاز في صالة التعذيب قصوى، وهي نفسية أكثر منها جسدية، لأن مجرد تذكره لمراحل التعذيب يبعث الخوف في نفسه، وتسيطر عليه الحيرة حول حل يكون دون إلحاق الأذى بالثورة. كلما تطلع اللاز إلى المستقبل شعر بنهايته، فنجده يقول معبرا عن ذلك ومحاورا ذاته: «انتهيت الآن تماما، وكل ما تبقى مني أو ما سيتبقى مني، فبفعل المصادفة لا غير... لقد بلغت النهاية، نهاية النهاية»[15]. حالة اللاز النفسية المعذبة والمتألمة في أقصى درجات المعاناة، تُعتبر صورة لكل أولئك الذين مروا على نفس التجربة، فكان الزمن النفسي مرآة عاكسة للوضع في الزمن التاريخي، ومعبرا بدقة وصدق كبيرين عن معاناة جزائريي الثورة أمام عنف العدو الفرنسي.

بعد اليأس الذي أصاب اللاز، تطلع مرة أخرى إلى المستقبل، فإذا بنسمات الأمل تداعب وجهه المتضرر، وتوحي له بالاستبشار خيرا، لأنه قد

يحقق ما لم يحققه قبلا، فقال في سره: «يقينا أنني سأكون لازا جديدا... لا أعرف نفسي، ولا يعرفني أحد حتى القبطان المأبون»[16]، لكن ذلك صعب التحقيق ومرهون بنجاته من بطش فرنسا أولا. الإكثار من الأزمنة النفسية للاز، جعل القارئ يتقرب من هذه الشخصية، ويعرفها أكثر، لأنه يعيش معها طموحاتها وأحلامها، ويتقاسم معها أفراحها وأحزانها...

عاش البطل مرحلة التغيير من اللاز بن مريانة إلى اللاز بن مريم بكل صعابها، فالتعذيب كان يمتحنه إذا ما كان سيرجع إلى اللاز الأول أم لا، فظل ينبه نفسه مرارا لقيمة اللاز الجديد حتى لا يقع في الخطأ، خاطب ذاته بالقول: «ليتك الآن في الجبل تمسك رشاشا وتنبطح وراء صخرة كبيرة وتضغط بإصبعك لتلهب النار، تحصد أعداءك الذين يحاولون عبثا التقدم من موقعك. تضغط وتضغط، حتى يحمر الرشاش ولا تبالي... وإذا ما جاءت قذيفة مدفع أو طائرة تهوي عليك»[17]، وفي حالته المتفائلة هذه، اشتاق إلى والده الذي حرمته فرنسا منه سابقا، وها هي تعيد حرمانه منه بحجزه، فيدفعه الحنين إلى تخيل جنوني، وأنه استشهد أمام والده، وقد افتخر به وهو يقبله قبلة الوداع.

كثرت تأملات اللاز لأنه لم يجد في هذه الثكنة سوى ذاته ليخاطبها، فاستغرق معها الوقت الكثير، وبينما هو يفكر طرأ في باله أن يتهم الشامبيط الخائن بتهمة تُلقيه في أشواك التعذيب، فتخيل أنه «سيتعذب، سينال قسطا وافرا يعادل ضخامة جسمه... يتذاوب شحمه على هذه المنضدة ويسيل مع المسامير، ممزوجا بالدم الأسود»[18]، وقد تمتع اللاز كثيرا وهو يرسم ذلك المشهد التخييلي، واستطاب له كثيرا منظر الشامبيط مجروحا، لكنه بعد فترة من التأمل في أدوات التعذيب عدل عن الفكرة، لأنه رأى المنضدة والسياط والآلات شرفا لا يستحقه الأعداء.

بعد تتبع أزمنة اللاز النفسية وهو في صالة التعذيب، اتضح أن حالات شعورية عدة اعترته، ففي الأول كان مستاء ومحتارا وخائفا ومتشائما (يشعر

بالموت)، ثم متفائلا (يكون لازا جديدا)، ثم في نشوة من التفاؤل (يمسك الرشاش)، ثم في لحظات الاستمتاع (بمنظر الشامبيط).

تمسك اللاز جيدا بوجوده الجديد، فكتم أسرار الثورة، ثم تمكن من تهريب الجزائريين من الثكنة، ورغم هذا الإنجاز البطولي بقي حزينا لأنه لم يتأكد بعد من تغير نظرة الناس إليه، يقول لنفسه: «لم يتصوروني، ولن يتصوروني أبدا، واحدا منهم (...) منبوذ من طرفهم. منبوذ، إنني لاز، وليس غير لاز، ولو وجدوا جثتي ملقاة في الشارع، مخربة برصاصات العسكر، لتركوها في مكانها تتعفن، بل قد يبصق عليَّ الكثيرون»[19].

تحقق حلم اللاز الذي راوده في الثكنة، فحمل السلاح، ولما ذُبح أبوه أمامه دخل في مرحلة اللاوعي، عاش فيها زمنا نفسيا مفتوحا إلى آخر الرواية، لا يعلم أحد متى ينتهي أو يتوقف، ومتى يعود الزمن الطبيعي الفعلي[**]، ولم يبق من عقل اللاز سوى جملة يحفظها لكنها تعني كل شيء: ما يبقى في الوادي غير حجاره.

إن الزمن النفسي للاز بادئ منذ أن عاش حالة الضياع والسعي لإثبات الوجود والبحث عن الذات وسبل العتق من الماضي، ولما وجد أباه وُلد من جديد، فأحب حاضره ورغب فيه، وحب هذا الحاضر أثمر فيه رغبة تحقيق الانتماء إلى الجزائر، فانضم إلى الصفوف بإخلاص.

3-2- زمن السعي إلى الخلاص من الحاضر

بعطوش راعي العجول، وصاحب الطموحات التي لم يجد سوى فرنسا محققة له إياها، فانصاع لأوامرها وصار حليفا لها، لكنها بدورها استغلت ضعف شخصيته ورغباته الجامحة في الترقي، فجعلته "سارجان" مقابل قتله "أم اللاز" واغتصابه خالته "حيزية". بعد الجريمة الشنعاء، دخل بعطوش في أزمة نفسية، و«صورة خالته عارية بين أحضانه، ما تنفك تبدو أمام ناظريه»[20]، عاش حالة انهيار عصبي ومرحلة لاوعي، وحاول تحاشي ما حدث ورميه في خانة النسيان، إلا أنه عجز عن ذلك، فعانى عذابا روحيا ممتزجا مرة

بتأنيب الضمير ومرة أخرى برغبة ساحقة في الموت أو الانتحار، حتى سيطر عليه اليأس من الحياة، وهناك كره نفسه أشد الكره.

تخبو حالة التوتر لتأتي مرحلة الهدوء التي تشبه الغيبوبة، وقد أدخلت بعطوش في سكوت وتأمل في المحيط، وجعلته غير آبه بما يدور من حوله.

كثيرا ما يوظف الكاتب عبارات توحي بحال الشخصية وهي تعيش زمنها الخاص: «إن ضبابا كثيفا في لون دخان التبن يلفه... عيناه لا تريان سوى الضباب... قدماه لا تطآن غير الضباب... صدره لا يتنفس غير الضباب...»[21]؛ أحال الضباب إلى سوء حال بعطوش، وتيهه عما يجري ويحدث، فقد صار يتمنى الخراب لكل شيء: تذوب الجدران، تنشق الأرض وتبتلع الضابط وعسكره، ويصاب هو بالموت: «لو كانت القنابل اليدوية في حجم أقراص دواء الصداع لكان في استطاعة المرء أن يبتلع واحدة أو اثنتين منها، وينتظر انفجارها في صدره. بم... بم...»[22].

ما هدوء بعطوش إلا حالة مؤقتة سابقة لعاصفة، إذ أنه تخلص من أزمته النفسية حين قتل الضابط الفرنسي، وألهب الثكنة وأخرج المسجونين مع الأسلحة، ما أودع في نفسه سكينة وراحة، وهنا حقق الزمن الطبيعي تخلصا من الزمن النفسي.

3-3- زمن الانشطار وأزمتي الخوف والفراق

قدور بطل ثوري، سببت له الثورة عدة مشاكل نفسية، ففي أول الأمر كان يعيش موقفا محايدا منها، إلا أنه بدأ يقتنع على يد صديقه بأن الحياد لا جدوى منه وأنه في نفس الوقت تحيز للعدو، أدخله ذلك في تشتت وانشطار بين طرفين، وعاش مرحلة يستقصي فيها نفسه ويشاورها في اتخاذ القرار، فإما المستعمر أو الثورة، وكثيرا ما تراءت له صورة البئر، وأنه يغوص في أعماقه، وأنه كان «ينادي بالإنقاذ، ويمتد له حبلان، واحد أبيض يمثل يد ريمون أوجان جون أو الحاج الطاهر... وآخر أسود يمثل يد اللاز أو يد حمو أو يد زيدان»[23]، وقد احتار بأيهما يتعلق، لأن الأول يبعث إلى الذبح من قبل الثوار، والثاني يبعث

إلى الرصاص من قبل العدوان، ثم خيل له أن «يتعلق بالحبلين معا... الأبيض والأسود... لكنه يظل كما كان، لا يتحرك وينادي بالإنقاذ، وكلما جذب الحبلين انجذبا واستقرا تحت قدميه كورا كورا...»[24]. لما صحا قدور من سهوه وتملص من زمنه النفسي الخاص، وجد ضغطا من قبل حمو الجالس بجانبه، والذي أخذ يستفهم عن أي صف سينظم إليه، أو أي حبل سيمسك... إلا أن قدورا لم يجب، وشرد مرة أخرى بسبب توتره وحيرته: «ينادي بالإنقاذ، ويمسك بالحبلين، ويتكوران عند قدميه، ويحتار بأيهما يحتفظ وأيهما يختار... الذبح من جهة والرصاص من جهة. ومع ذلك يجب أن يخرج من هذه البئر»[25]. تعكس فترات السهو قلق قدور، وحدة توتره التي تزداد كلما مارس صديقه حمو ضغطا عليه.

بسبب الضغط الممارس عليه، دخل قدور في حالات تشبه الغفوات المتقطعة باليقظات، تدل في مجملها على القلق والانشطار. لم يرغب قدور في استمرار الوضع، وأراد تغييره والخلاص منه، مما يجعل التقدير للزمن النفسي بأنه طويل لكره الشخصية له، ولا أدل على طوله -حتى وإن كان متقطعا- من قول السارد: «وتتالى الغفوات والاستيقاظات»[26].

الزمن النفسي زمن نسبي داخلي يقدر بقيم متغيرة باستمرار، بعكس الزمن الخارجي الذي يقاس بمعايير ثابتة[27]، فإن كانت الشخصية تعيش حالة قلق أو اكتئاب أو حزن أمكننا ذلك من تقدير مدة الزمن النفسي بالطول، لعدم انسجام وراحة الشخصية، مثلما كان الأمر مع قدور.

بعد تفكير وتمخض داخلي، توصل قدور إلى قرار، هو الانضمام إلى الثورة، لأن خروج فرنسا يعني تحقيقه المراد؛ زواجه بزينة وشراء الحمام، وبالتالي تخلص قدور من زمن الحيرة والانشطار.

ناضل قدور ليحقق الغاية المنشودة، ويوم إلقاء القبض على اللاز، أصابته نوبة من الوجل والذعر، وانشغل باله كثيرا -وهو قاصد البيت- في الوقت الذي سيكفيه لترك القرية، وفي ضرورة إخفاء الأمر، وفي شأن اللاز إن

كان قد أفشى أسماء الثوار أم لا... أمور كثيرة تهاطلت على مخيلته في لحظة زمنية ضئيلة، فالزمن النفسي أطول من الزمن الطبيعي.

يختلف الزمن النفسي مع الزمن الطبيعي الخارجي في المدة؛ فقد تعيش الشخصية زمنا نفسيا قصيرا، إلا أنه في الواقع أطولُ من ذلك بكثير، والسبب عامل نفسي يُشعِر بقصر الوقت، كما يمكن أن يحدث العكس، مثلما كان مع قدور، ففي قرابة الصفحتين، فقد شعوره بالزمن الطبيعي، وسمح لخياله بأن يسرح في عوالم وهمية، لكنها كانت حقيقة في يوم ما، «استعرض أسماء كثيرة ووجوها عديدة ممن جندهم بنفسه، أو التحقوا بالجبل قبل انخراطه، على يد حمو»[28]، وما دل على الزمن النفسي قصيرٌ في حقيقته (في الطبيعة)، هو قول السارد: «خطر لقدور، وعجب كيف تذكر بسرعة فائقة أشخاصا كانوا بعيدين عنه كل البعد، لم تكن تربطه بهم أية علاقة»[29]، وقال "سرعة فائقة" دلالة على قِصر الزمن في الحقيقة والذي استغرق فيه كل ذلك، وما يدل على قصر هذا الزمن الطبيعي كذلك، هو وقوعه في الفترة التي تبدأ بعد فتح الباب (باب الكوخ الذي ينوي قدور دخوله) وقبيل الدخول، وإن قدرنا مدة هذه الفترة، فهي ثوان معدودة.

إن الزمن النفسي الذي عاشه قدور هنا قدام باب الكوخ، يوضح فكرة أشارت إليها سيزا قاسم، وهي أن الذاكرة تلعب دورا هاما في استرجاع الماضي، وربطه بحياة الشخصية النفسية، وعرضها من خلال منظور الشخصية، لا من خلال منظور الراوي[30]، فيصبح الزمن النفسي كاسرا لسلطة الراوي التقليدية، كما يقرب صورا واقعية إلى ذهن القارئ.

كل المواقف والعقد والرواسب التي لحقت قدور وصفتها لنا الرواية، معبرة عن خبايا نفسية داخلية للإنسان[31]، الأمر الذي جعل القارئ يعرف الشخصية ويشعر بواقعية الأحداث في الرواية.

3-4- زمن الانشطار وهم النصر

عانى زيدان حالة تشبه حالة قدور، وهي الانشطار بين أمرين يصعب الاختيار بينهما؛ هما إخبار أو عدم إخبار اللاز بأبوته له، ولما التقاه، وفي بضع ثوان لاحت في باله عدة خواطر، ما يبينه المقتطف المستهل بقول اللاز:

«أتعطف علينا يا عم زيدان.

هل أصارحه بالحقيقة الكبرى؟ يقين أنه حان أوان مصارحته... ألا تكون أمه قد سبقتني. لا. لا أعتقد ذلك، فهو خالي الذهن على ما يبدو. آه. كيف أبادره؟ كيف أبرر صمت كل السنين الطوال؟ هل يفهم؟ هل يعذرني؟ قبل أن أودعه، الوداع الذي قد يكون الأخير، لابد أن أعلمه. نعم لابد من ذلك. لقد حان أن يسترد اعتباره. نعم حان. رغم أنه فعله قبل اليوم، يوم قرر قتل القبطان.

ودون أن يدري، وجد نفسه يتمم:

- نعم. نعم. كثيرا جدا يا ولدي العزيز»[32].

عاشت الشخصية زمنا نفسيا طويلا مقارنة بالبرهة القليلة من الزمن الطبيعي، هي لحظة أو هنيهة في التأمل، وقد أشار الزمن النفسي إلى أزمنة نفسية سابقة، تشترك كلها في حيرة صاحبها "زيدان" حول الموضوع منذ سنين مضت، فلكل زمن نفسي دوافعه وأسبابه.

يمكن للإنسان أن يُجبَر على عيش زمن نفسي تفرضه عليه أوضاع معينة؛ كان هذا هو حال زيدان في رواية اللاز، فلما كان النصر همه والثورة شغله: «شعر بالإشفاق على قدور (لما رآه يتبرع بماله)، فأضاف في نفسه، الثورة تحول الإنسان، ومادامت عميقة، فإن التحول يحدث بسرعة. يجب أن يتحول قدور إلى مناضل ثوري، متطهر من العقد والرواسب...»[33]، لقد أشارت عبارة "أضاف في نفسه" على عيشه زمنا نفسيا.

خلافا لموضوعه مع ابنه، انشغل زيدان بهموم الثورة، لاسيما عندما أتته ضرورة التغيب فجأة، واحتار في اختيار من سيخلفه؛ حينها استقطع جزءا

من الزمن الطبيعي، وحوله إلى زمن نفسي بغية محاورة نفسه فيه، واستشارتها بخصوص الفرد الموثوق به لأداء المهمة، وقد كان هذا الزمن النفسي بطيئا وعسيرا على زيدان نظرا لقيمة الموضوع، حيث عاشه قلقا، إلا أنه نال ما أراد وتوصل إلى قراره.

يرتبط الزمن النفسي الذي تعيشه الشخصية ارتباطا وثيقا بالمشاكل الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد، مما يطرح أفكارا وقيما متعددة الميادين؛ من أمثلتها ما فعله قائد الوحدة الثانية من ذبح لسبعة أشخاص في ليلة واحدة، فذلك جعل زيدان يشرد عما يحيط به، فقد «خطر له... لو كنت مكانه، لكنت الآن مغموما... سبع أنفس بشرية كاملة، ولا يتأثر (...) حين يدرك هذا الشاب معنى ذبح سبعة آدميين في ليلة واحدة، بيد واحدة، ينفجر هذا الرأس المستطيل الذي بين كتفيه... ولو كانوا خونة، ولو كانوا أعدى أعداء الوطن»[34]. زيدان شخصية تحب كثيرا الانعزال ومحاورة الذات، وفي كل مرة يفعل ذلك يخرج بنتيجة أو قرار، وهنا توصل إلى ضرورة مراقبة القائد وتوصيته بعدم احتكار العملية، وإنما إشراك الجميع فيها.

خاتمة

- يحضر الزمن النفسي في الرواية من خلال تقنيات أهمها التذكر والسهو والهذيان والمونولوج.

- يرتبط الزمن النفسي بعنصر الشخصية، ولا يمكنه الخلاص منه أو التشكل منعزلا عنه.

- يكون الزمن النفسي لا إراديا، إلا أنه قد يأتي في حالات نادرة إراديا مفتعلا من قبل الشخصية.

- قد تتصارع الأزمنة النفسية مع الأزمنة الطبيعية، كما قد تتصارع الأزمنة النفسية فيما بينها.

- قد يحقق الزمن الطبيعي تخلصا من الزمن النفسي، أو العكس.

- لا يتحقق الزمن النفسي إلا بغياب الزمن الخارجي بطبيعته الفلكية، أي عندما تفقد الشخصية شعورها بالزمن الحقيقي وتعيش زمنها الخاص.

- يسهم الزمن النفسي في تقريب الشخصية من القارئ، فتكون معروفة لديه بعد أن يعيش معها طموحاتها وأحلامها، ويتقاسم معها أفراحها وأحزانها...

- يؤدي الزمن النفسي إلى بعث تصورات ورؤى في الرواية تكون كامنة في نفس الشخصية، فبه يدرك القارئ الأبعاد الفكرية والتصورات العقلية لشخصيات الرواية.

- يعكس الزمن النفسي معاناة الشخصية أو سعادتها، ومختلف المشاعر التي تعتريها من قلق أو اطمئنان أو خوف أو تفاؤل أو تشاؤم أو شوق أو استياء أو استمتاع أو كره أو ندم... وكذلك نواياها ومخططاتها ومستواها الإيديولوجي وطريقة تفكيرها.

- يرتبط الزمن النفسي الذي تعيشه الشخصية ارتباطا وثيقا بالمشاكل الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد، مما يطرح أفكارا وقيما متعددة الميادين تسهم في بناء الرواية وإتمام أحداثها.

الهوامش:

1- زهرة ديك: الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب..، منشورات دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، 2013، ص: 124.

2- سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984، ص: 45.

3- إميل توفيق: الزمن بين العلم والفلسفة والأدب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1982، ص: 128، 129، 130.

4- الشريف حبيلة: بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، 2010، ص: 80.

5- الطاهر وطار: اللاز، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص: 08.

6- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، –عربي، إنكليزي، فرنسي-، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، 2002، ص: 109.

7- كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ط2، ص: 46.

8- الطاهر وطار: اللاز، ص: 09.

* "مريانة" اسم نُسب إلى "مريم" أم اللاز احتقارا لها واستصغارا لشأنها.

9- الطاهر وطار: اللاز، ص: 53.

10- المصدر نفسه، ص: 55.

11- المصدر نفسه، ص: 63.

12- المصدر نفسه، ص: 62.

13- المصدر نفسه، ص: 64.

14- المصدر نفسه، ص: 65.

15- المصدر نفسه، ص: 75.

16- المصدر نفسه، ص: 75.

17- المصدر نفسه، ص: 78.

18- المصدر نفسه، ص: 76.

19- المصدر نفسه، ص: 100.

** إلا أن قارئ اللاز الثانية "العشق والموت في الزمن الحراشي" يدرك أن هذا الزمن النفسي ينتهي لما يوشك التيار الإسلامي على تشويه وجه تيار الاشتراكية، فيتفطن اللاز، ليكون رمزا لتفطن كل الجزائريين من أجل تعليق وسام الاشتراكية على رداء النظام الجزائري.

20- الطاهر وطار: اللاز، ص: 150.

21- المصدر نفسه، ص: 152.

22- المصدر نفسه، ص: 189.

23- المصدر نفسه، ص: 39.

24- المصدر نفسه، ص: 39.

25- المصدر نفسه، ص: 39.

26- المصدر نفسه، ص: 40.

27- أ. أ. مندلاو: الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، دار صادر، بيروت، 1997، ص: 137، 138.

28- الطاهر وطار: اللاز، ص: 46.

29- المصدر نفسه، ص: 47.

30- سيزا أحمد قاسم: مرجع سابق، ص: 34.

31- حكيم اومقران: البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص: 37.

32- الطاهر وطار: اللاز، ص: 54.

33- المصدر نفسه، ص: 49.

34- المصدر نفسه، ص: 131.